الملحق الثقافي

ملحق أسبوعي
يصدر كل ثلاثاء
عن جريدة الثورة
العدد 1150
2023/7/4

الأدب يفضح جرائم الاستعمار الفرنسي

أول الكلام

بين الحلم والواقع ..

▪ ديب علي حسن

يُقال إن الإنسان يقضي شطراً كبيراً من شبابه يحلم بما سيكون عليه في المستقبل وحين يمتد به العمر ويصل إلى سن الشيخوخة يقضي كل وقته يتذكر ما كان عليه.

إنه الاغتراب بين مرحلتين من العمر مرحلة الإنجاز التي كانت في سن الشباب والقدرة على العطاء هكذا يفترض، أما مرحلة تأمل ما كان فهي ترتكز على ما تحقق من إنجازات يباهي بها الإنسان أو يشيح الوجه عنها.

تذكرت ذلك كله حين قرأت خبر رحيل عالم الاجتماع والروائي السوري حليم بركات، ومن كتابه المتميز (الاغتراب في الثقافة العربية.. متاهات الإنسان بين الحلم والواقع) كان هذا العنوان.

حليم بركات من طفولة اليتم إلى هجرة المكان أكثر من مرة هو الأكثر قدرة على تحليل مفهوم الاغتراب في المجتمع والثقافة والحياة لإنه بعمق عالم الاجتماع ورؤيا واستشراف الروائي المبدع استطاع أن يحلل مجتمعنا العربي وأن يشخص العلل والأمراض التي تعصف به، ولم يقف عند التشخيص بل وضع الكثير من أساليب العلاج.

حليم بركات، في متاهات الثقافة والاغتراب أنجز وقدم الكثير للثقافة العربية، ربما لم ينل ما يجب أن يكون له من الاهتمام ولكنه باقٍ في كل ما قدمه ولا يمكن لأي عالم اجتماع عربي إلا أن يرتكز على الكثير مما قدمه بركات.

كيف تأسست مكتبات دمشق؟

صالح هواري وأدب الأطفال

سامر كحل: قصيدة تكثيف إبداعي

نقش سوري ماري عجمية

رئيس التحرير
أحمد حمادة

مدير التحرير
معد عيسى

إشراف
ديب علي حسن

الإخـــراج
هدى نصر شمالي

توجه جميع الرسائل
باسم هيئة التحرير
D.hasan09@gmail.com
هاتف ٢١٩٣٢٢٢

إصدار

إبداع شعري

(أزل) مجموعة شعرية جديدة للشاعر الدكتور بيان محمود السيد.

اقتصرت المجموعة الشعرية الجديدة (أزل)، على الشعر الموزون والالتزام بالروي والمواضيع التي تعكس انفعالاً وجدانياً صادقاً.

وفي المجموعة يظهر الألم الاجتماعي واضحاً عند الشاعر السيد، ويدل على صدق الحالة التي صورها بعد أن امتدت فترة المؤامرات والوجع على المجتمع كقوله في قصيدة بعنوان بحل بسيط:

بحل بسيط ستحيا سعيداً وترضى
إذا ما نسيت الكلام
وأكملت صمتك
حتى تنام..

وفي قصيدة مطر يصور الشاعر السيد الطبيعة، ويحرك جمال محتوياتها مع موضوعه العاطفي بشكل متوازن فيقول:

مطر.. حميمي المزاج
مضى على دربي
وسامر وحدتي وهاجسي.. مطر
وترتعش الأزاهير القصيرة في الشغاف
وأسير مضطربا..

ويبدو الحب في نصوص الشاعر السيد عفوياً وبريئاً ونقياً محملاً بالجماليات والطفولة والحنان، فيقول في قصيدة انتظار:

تتثاقل اللحظات
في قلق انتظارك فاعذريني
إن أطل الطفل في إلحاح أشواقي
ومن حين لحين..

وفي المجموعة تبدو الصور جلية في النصوص التي يعبر فيها عن اللهفة وتقتصر على الاستعارات المكنية فيقول في قصيدة نسمه:

تمر بحقل أزهاري
طوال اليوم أسماء
ولست أفوح إن مرت
ولا تهتز أوراقي..
(حللتِ صباحاً
أقمتِ مساءً
وأوثقت روحي كجيش احتلال.

ومثال آخر:

سلاماً
على زفرةٍ بردها من لهب.)

كما أكثرَ الشاعر من استخدام أسلوب الإنشاء:

(هل تدركين؟
هل تسمعين حفيف صدري
واشتياق الرّوح في حبل الوتين؟).. إنشاء نوعه استفهام يبرز الحالة الانفعالية للشاعر. (غضّ طرفك لا تشوّه ناظريك إنشاء:نوعه أمر).

ومن هنا كان معجم الشاعر اللغوي يميل إلى الطّبيعة والرفعة والعلو (نجم قطب، عتم، غروب، القمر، الشراع، رائحة المطر، الثلج..)

وفي الختام، يختمّ متغزلاً:

(وينساب نهرٌ شفيف الثنايا
ويزهر أفقٌ بعذب ابتسام
وأنتِ البداية إن كان بدء
وإن كان ختمٌ فأنت الختام.)..

المجموعة الصادرة عن دار دلمون الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، وتقع في ١٤٤ صفحة من القطع المتوسط عبرت عن عواطف الشعرية الوجدانية والوطنية بصدق.

محاضرة

جماليات الأسطورة

الأسطورة والإنسان عنوان المحاضرة التي ألقاها الباحث عيد الدرويش في المحطة الثقافية بجرمانا بالتعاون مع فرع ريف دمشق لاتحاد الكتاب العرب، سلطت الضوء على تداعيات الأسطورة ومعانيها في التاريخ وأثرها على الإنسان.

رئيس فرع ريف دمشق لاتحاد الكتاب العرب الدكتور غسان غنيم الذي افتتح المحاضرة وأدارها رأى أن هناك خلطاً بين الأسطورة وأنماط تشبهها أو تقترب من دلالتها الواسعة مثل الحكاية الشعبية أو الخرافة أو الملحمة.

وأوضح غنيم أن الأسطورة حقل له ما يميزه بين هذه الأنماط، فهي قصة تم تأليفها من قبل جماعة بشرية أو من أفراد نابهين في هذه المجموعة، وتناولت الموضوعات الوجودية الكبرى كفكرة الموت والوجود والمنشأ والمصير، وقد تتناول بعض الشروح التي يمكن أن تقدمها الجماعة لناشئيها، فهي حقل معرفي لا يزال الكثيرون يختلفون بشأنه وما تزال فاعليته الأدبية والثقافية حاضرة.

بدوره الباحث الدرويش بين أن الإنسان كانت منذ الأزل مخيلته واسعة، وفيها كثير من التطورات وفق ما شاهده من سلوكيات وتحولات اجتماعية وإنسانية ومعرفية، جعلته يبحث دائماً إلى أين يمكن أن تؤول الأمور، مبيناً أن الأسطورة تعتبر شكلاً من الأشكال المعرفية.

والأسطورة حسب الدرويش لا تعتمد الزمان والمكان ويمكن أن تأخذ كل ما يحدث في الواقع وفلسفته وعلومه ومعرفته، ولكن دون أن تعتمد على أدوات الواقع فهي تتمثل الرمز والدلالة غالباً.

ولفت الدرويش إلى دور الوعي عند الإنسان في فهم الأساطير والاستفادة منها، وعدم الخلط بين الصحيح منها وغير الصحيح.

كتاب العدد

حسب الترتيب الهجائي

أحمد بوبس
أحلام غانم
ألوان عبد الهادي
رفاه دروبي
علي حبيب
محمد خالد الخضر
مها محمد
نبيل نوفل
وفاء يونس

الفكر والثقافة في الغرب هل تراجعا؟

نبيل فوزات نوفل

للإجابة عن هذا السؤال،لابد من التأكيد على حقيقة الترابط العضوي بين الفكر والثقافة والأخلاق والقيم الإنسانية، فلقد أكد تاريخ البشرية هذه الحقيقة، فلا يختلف اثنان على أن الأخلاق هي سر تقدم الأمم ورقيها، مهما بلغت إمكانياتها من القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية، إلا أن مؤشر الأخلاق هو الأقوى،وقد ذكر ابن خلدون «أن السلوك الأخلاقي المنحرف هو طريق الانهيار الحضاري، وأن رقي الأمم لا يتحقق بتوافر القوة المادية،أو رقي العقل، بل بتوافر الأخلاق الحسنة، وتاريخ البشرية خير شاهد على سقوط حضارات ودول نتيجة سوء أخلاقيات حكامها وشعوبها، ومن هنا نفهم الدور الذي تؤدّيه القيم الروحية بالنسبة للقوة المادية، فإذا كانت هذه الأخيرة ضرورية لحصول الغلب، فإن الأخلاق السياسية أكثر ضرورة، لأن بها يتم الحفاظ عليه، أي يتم الإبقاء على الاعتراف بسلطة الغالب والإخلاص في الإذعان لها»

ولقد بين المفكرون والمثقفون أهمية الأخلاق في تاريخ الحضارات الإنسانية وأكدوا أن للأخلاق دوراً مهماً في بناء المجتمع، بل هي حصنها المنيع وأساس تطور المجتمعات واستمرارها وقوتها وتتجلى هذه الأهمية من خلال الآتي:

١-تُبنى عليها جميع القوانين والأحكام، الأمر الذي يجعلها أساس صلاح المجتمع، والدرع الواقي من المسبّبات المؤدّية لانهياره، وتحويلها إلى مجتمعات تحكمها الشهوات أو الغرائز، وبالتالي سيادة قانون الغاب فيها.

٢-أساس تكوين الأفراد المثاليين، وأسر سليمة، ومجتمعات راقية، ودول متقدّمة، وتلعب دوراً أساسياً في تهذيب المجتمعات، وإعدادها إعداداً فاضلاً، علماً أنّ الأخلاق المثالية هي العاصمة للمجتمعات من الانهيار والانحلال.

٣- تصون المدنية والحضارات من الضياع، ما يجعلها المسبّب الأساسي لنهضة الأمم، وقوّتها.

٤-تنمية الشعور الجماعي،وتنظيم العلاقات بين الأفراد، الأمر الذي يقوّي أواصر المجتمع، ويزيد من ألفته، ومن تعاونه، وتماسكه، وبالتالي قوّته.

٥-تنمية الإرادة، ووضع حدود للشهوات، الأمر الذي يدفع الأشخاص لإشباعها بالطرق الصحيحة، وبالتالي كبح جماح النزوات.

٦-إنشاء وحدة قيمية للأفراد،فهي الدستور المثالي الذي يتم تقييم الأفعال والتصرفات بناءً عليه، علماً أنّ كل ما يتفق مع التصرفات هو حسن ومحترم وخيّر، وكل ما يخالفها فهو شر ومحتقر وسيئ، الأمر الذي يوحّد هذه القيم لدى أفراد المجتمع.

٧- لها أثرٌ كبيرٌ في تنمية سلوك الفرد والمجتمع، لما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة والصدق والعدل والأمانة والعفة والتعاون والتكافل والإخلاص والتواضع والألفة وغير ذلك من القيم الحميدة والأخلاق الفاضلة التي تدفع الفرد إلى اتخاذ مواقف إيجابية والمبادرة لتحقيق النفع الخاص والعام،لذلك فإن رابطة الاتحاد الاجتماعية تظل الركيزة الأساسية لتنمية المجتمع وترقيه إلى التمدّن الحضاري.

٨- غاية من أسمى الغايات الإنسانية، ومن أعظم المقومات للحضارة الإنسانية، لا يمكن الاستغناء عنها لأي نوع من الأنواع البشرية، ولا لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، من أجل ذلك منذ أول وجود المجتمع الإنساني كانت المهمة الأخلاقية من أحسن المهمات لسائر الأديان والمذاهب.

٩-إن مكارم الأخلاق هي تزكية النفس الإنسانية وتطهيرها بإدراك الفضائل وتمييزها عن الرذائل الملتبسة بها. وحمل النفس الإنسانية على التزام الآداب التي تقودها إلى عمل الصلاح والإصلاح، فهي عبارة عن مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها،فهي تقوم على تجربة مخططة منبثقة من الواقع الاجتماعي وخاضعة لمناهج علمية مستفادة من الدراسات والتجارب التي أجريت على هذا الواقع الإنساني.

وكما قلنا قوة الأخلاق من قوة الفكر والثقافة التي تنتجها، فاليوم وبعد التقدم الكبير في العلم وثورة التقانة والتقدم الهائل في علوم الذرة والبيولوجيا وعلم الوراثة والتقدم التكنولوجي والمعلوماتي الهائل نجد تراجعاً كبيراً في الأخلاق لدى معظم الشعوب الأوروبية،بدأ يهدد وجودها واستمرارها، وهذا يدل على ضعف وانحطاط الثقافة والفكر في هذه المجتمعات الذي بدأ ينتشر فيها وخاصة بعد إطلاق ثقافة العولمة والليبرالية المتوحشة التي تعزز الأنانية والفردية،وفي مقدمتها التحلل الخلقي الذى بدأ ينتشر بين الأفراد في هذه المجتمعات،مثل ما يسمى الآن المثلية الجنسية، وهو ما تدعو له اليوم بعض الجهات في المجتمعات الغربية خاصة وتشرع لهذا الفعل الخطير،فكما بدأنا اليوم نسمع ونقرأ عن انتشار المثلية في المجتمعات الأوروبية وأصبح لها مؤيدون، والسلطات تصدر قوانين تشرعن هذا الفعل المدمر للأخلاق والمخالف لكل القيم الإنسانية ما سيؤدي إلى تدمير ما بقي من أخلاق في هذه المجتمعات. ولقد بدأت أوروبا منذ زمن تعاني جملة من مظاهر الانحطاط الأخلاقي التي جاءت نتيجة انحطاط الفكر والثقافة منها:

١-تسخير منجزات العلم في مجالات مخالفة للقيم الأخلاقية، فعلى الرغم من التقدم العلمي والمادي الكبير الذي شهدته أوروبا،إلا أنها باتت في خطر الانهيار والتصدع الحضاري،لأن الإنجازات العلمية-التقنية يمكن من جهة أن تسخر لخدمة مصالح الإنسان وأن تساعده في رفع مستوى حياتهم المادية والروحية ومن جهة أخرى استخدامها ضد الإنسان،لإبادة ملايين البشر، وإلحاق الضرر بصحة الإنسان والسيطرة على حضارات الشعوب وتدمير ثقافتها وخاصة بعد اكتشاف الذرة وعلم الوراثة والأتمتة وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة،هذا إلى جانب فقدان الحرية والاستبداد والفقر والبطالة كلها عوامل تساعد على ضعف الأخلاق في المجتمع وتسهم في تعزيز الانحرافات عن الأخلاق الصحيحة.

٢- إن السياسات الإمبريالية الاستعمارية وما بثته من الأنانية، والخلاص الفردي والجشع والاستغلال، وانتهاج سياسة الغاية تبرر الوسيلة، جسدت والتباعد وضعف الروابط بين أبناء المجتمع،إلى جانب تعاطي الفواحش والرذائل والمحرمات والدعوة إليها والانسلاخ من القيم والمبادئ الأخلاقية وفعل كل ما هو مناف للآداب العامة من أسباب انهيار المجتمع وسقوطه، فالأمم لا تسقط بسبب انهيار اقتصادها أو قوتها العسكرية فحسب،بل بسبب التدهور الأخلاقي وانتشار الفساد الذي هو أهم نتائج الانحطاط الأخلاقي.فكما نعلم إن أخلاق الناس ترتبط بأخلاق السلطة المهيمنة عليهم، وبقدر ما تتغير السلطة وتتغير سياستها تتغير أخلاق الناس، وهناك أمثلة في غاية الوضوح يعني ألمانيا مثلاً، الشعب الألماني انقسم إلى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، في هذه السنوات العقود التي فصل فيها الألمان أنفسهم إلى شرقيين وغربيين الطبائع والأخلاق والسلوك المسيطر على هؤلاء كان مخالفاً تماماً للطبائع والأخلاق والسلوك المسيطر على هؤلاء، وهم شعب واحد، كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية كلاهما شعب واحد، لكن هيمن على هذا نظام وهيمن على هذا نظام، فهذا الشعب صارت له طبائع وسلوك وأخلاقيات وتقاليد تناقض وتختلف عن طبائع وسلوك وأخلاقيات هذا الشعب الآخر؛ فهنا ابن خلدون يلفت النظر إلى أن الأخلاق أخلاق الشعوب تتكون بفعل سياسة السلطة المهيمنة على الناس.

٣- انتشار الفكر الليبرالي المتوحش والأخلاق البورجوازية،التي رسخت النفعية ونظريات الأنانية التي جوهرها أن الإنسان يؤثر عند اختياره لنهجه في السلوك مصالحه الخاصة على مصالح المجتمع والناس، وهذا ما أوصل المجتمعات الغربية إلى أزمة عميقة، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية والدول السائرة في فلكها .فبالرغم من قوة وغطرسة أميركا فإنها تحمل بذور فنائها وتدهورها، فأخذت تسود نظرة أن أميركا تتطور من البربرية إلى الانحلال دون ملامسة الحضارة. وهذا ما بدأ يصرح به بعض الكتاب المرموقين والباحثين السياسيين في أميركا الذين تصدوا وعروا السياسة الأميركية المتوحشة،مثل (بول فندلي) في عدة كتب منها «لا سكوت بعد اليوم»، ويأتي المفكر الأميركي (بول كندي) ليقول «أميركا دولة استعمارية»،وقد صدر له كتاب بعنوان«صعود وسقوط القوى العظمى» الذي صدر عام١٩٨٨م وله كتاب آخر هو «الاستعداد للقرن الحادي والعشرين» وآخر أعماله«برلمان الإنسان»، ويؤكد (بول كيندي) أميركا تمر بحالة خطيرة من التوسع الاستعماري»، كما أكد (بريجنسكي) في كتابه «الفوضى» عدم إمكانية أميركا القيام بدور الشرطي أو المصرفي للعالم ولا حتى الأخلاقي الكوني، ولعل كتاب موت الغرب للكاتب الأميركي / باتريك جبيه بوكان/،وهو سياسي ومفكر أميركي معروف، يبشر بموت وانتهاء الغرب، ونوجز ما جاء في هذا الكتاب فنرى أن المؤلف في هذا الكتاب ينبه إلى» أن الموت الذي يلوح في أفق الغرب هو في الواقع موتان،موت أخلاقي بسبب السقوط الأخلاقي الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية، وموت ديمغرافي وبيولوجي (النقص السكاني بالموت الطبيعي)،ويقول الكاتب:»إن الموت المقبل مريع ومخيف، لأنه وباء ومرض من صنع أيدينا ومن صناعة أفكارنا، وليس بسبب خارجي، ما يجعل هذا الموت أسوأ بكثير من الوباء الأسود الذي قتل ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر،فالوباء الجديد لا يقتل إلا الشباب، مما يحول الغرب عموماً وأوروبا بشكل خاص إلى «قارة للعجائز »

وبعد تقديمه إحصاءات عن حالات التدهور الأخلاقي والاقتصادي يخلص المؤلف للقول:»إن هذه هي إحصاءات مجتمع منحط وحضارة تحتضر وتموت، وإن بلداً مثل هذا لا يمكن أن يكون حراً، فلا وجود للحرية دون فضيلة ولا وجود للفضيلة بغياب الإيمان. ويبين الكاتب(بنيامين باير) في كتابه «امبراطورية الخوف» خطر السياسات الأحادية لواشنطن، ويمكننا تلخيص فكرة الكتاب بالآتي:»إن العمل المنفرد والحرب الوقائية وتغيير أنظمة الحكم بالقوة العسكرية أطاحت بالقانون، وبذلك أصبح موقفها ضعيفاً في محاربة الإرهاب، وإن تعميق الخوف في نفوس الأميركيين جعل أميركا إمبراطورية الخوف، ويجعلها تلجأ إلى إدارة العالم بالسلاح والفتن، ويؤسس بنيامين باير نظريته في أن مستقبل الامبراطورية الأميركية لا يشير إلى أنها تعيش طويلاً على أنها لا تلتزم بالقانون والعدالة ولا تعترف بحقوق جميع الدول والشعوب وتؤمن بالهيمنة)» ويرى الكاتب(مارتن جاك) مؤلف كتاب عندما تحكم الصين العالم «أن العالم سيتغير في المجالات المختلفة اقتصادياً وثقافياً، وأن عملة الصين ستحل محل الدولار، وستكون المعالم التاريخية في الصين مألوفة لدى العالم كله.ويلعب الحلف الروسي الصيني الإيراني الكوري الشمالي دوراً كبيراً في ولادة عالم متعدد الأقطاب، واقتلاع أنياب الشيطان الأميركي الرأسمالي الذي تقوده التلمودية العالمية،ما سيؤدي إلى ولادة العالم الجديد الذي بدأت معلمه ترتسم بقوة اليوم،وبات العالم في مواجهة حقيقية مع الفكر الإمبريالي الاستعماري والثقافة التي تقوم على الهيمنة وعلى السياسة المجردة من الأخلاق، ومما سبق، يمكننا القول إن الثقافة والفكر الغربي في حالة تراجع واندحار. ولقد صدق الشاعر أحمد شوقي حين قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومضات في سماء الحكمة

أحلام غانم

لماذا بائع الحكمة ؟

على صيغة سؤال استهل الكاتب «حافظ عبد الحميد حسين مقدّمة كتابه «ومضات في سماء الحكمة»

قبل البدء بالإجابة طافت في ذهني أسئلةٌ كثيرةٌ وضعتها بين يدي بائع الحكمة كومضة: كم في نعمة التفكير من آثار تنتظرنا في حاضرنا وقادم أيامنا!

على سبيل الحكمة

والله سبحانه وتعالى حكَمٌ حكيم، أنزل في مُحْكَمِ التنزيل (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (البقرة – ٢٦٩)

فالحكمة هي سرُ النظام الكوني، أساسٌ ثانٍ للملكوت الإلهي، وليس كونها الأساس الثاني أنها أقلُ فضلاً وشرفاً من العلم، لأن الترتيبَ بينهما تكامليٌ وليس تفاضلياً.

وتمثل الحكمة – وتوءمها : العرفان – الرصيد الذهبي في رأسمالنا المعرفي التراثي الحافل بالنزعات الأصولية المتطرّفة والمثقل بالتأويلات الفقهية التي تعمل على مصادرة العقل ..فالجميع يذكر الإمام الغزالي كيف فكّك العقل بالعقل ونذكر ذلك من خلال قوله: الحِكمَةُ ضَالّةُ المُؤْمِنِ حيثُما وجد المؤمنُ ضالّتَهُ فلْيجْمَعْهَا إليه».

على سبيل الفن

والفن هو فيض من وحي الروح تقتبسه من عين الوجود ونواميس الكون لتجعلَ المادي المحدود يشعُ بالمطلق المتسامي، وتتجلى فيه أشواق الإنسان الدفينة ما يجعل الروح ترفرف في ملكوت الله الواسع.

وأحسب أن توظيف التراث التنويري – وخاصة في جوانبه الصوفية والعرفانية –، يمثل موقفاً مهماً بعيداً عن جدل ثنائية التراث والمعاصرة، ويبقى نبعاً ثرياً للعقول التواقة للرؤى والكشوفات الفلسفية والذهنية.

العنوان

ما لا شك فيه أن فَهْمَ العنوان يسوق بالضرورة إلى فَهْم المضمون، فهو مرآةٌ عاكسةٌ، إنّ إدراجَ الكاتبُ عنواناً لعملهَ الأدبي يحمل بعداً رمزياً صُبّ في عبارةٍ موجزة: «ومضات في سماء الحكمة».

وتحديد معنى الحكمة من أصعب الأمور، شأنها في ذلك شأن الكلمات المعنوية العامة كالحرية والجمال والعدل..

والفلسفة غير الحكمة، وهما مختلفتان في المنبع والمصب ولكُلٍ طريقه، ولكُلٍ أدواته، وليست الفلسفة طبقة عليا بُنيت على الحكمة، ولكنّ الفلسفة والحكمة بيتان عاليان مختلفان.

وعليه يعد كتاب (ومضات في سماء الحكمة) الصادر عن دار أرواد للطباعة والنشر سورية – طرطوس- للكاتب حافظ عبد الحميد حسين، ومضة أخرى في سماء الفلسفة على طريق العروج إلى الروحانيات.

فقد وضع بين يديّ عُصَارة فكره ومشاعره، فلا استسهلتُ أو استهنتُ بما بين يديّ، بل حملته بمنتهى العناية، وتفحصته بكل اهتمام وعناية، وتعاملتُ معه بكل أمانة و احترام وتقدير.

تفاعلاً حياً ومباشراً مع عتبة العنوان عبر عتبة الإهداء إلى درجة التماهي والاندماج الكامل.

الطواف الفلسفي

حاول من خلالهما أي العنوان / الإهداء الطواف الفلسفي حول دائرة التساؤل الكوني ومشاركة القارئ العزف على أوتار الحياة بكلّ ما فيها من تحديات، فكانت ومضاتٍ عانَقَ فيها الفكرُ العاشقَ والمعشوق، وتمازجت فيها إيقاعات الوطن مع روحانية الإيمانيات.

نصوصٌ تُعصى على التصنيف

قد تختلط فيها حدود الأدبيّ بالفلسفيّ ويغدو من الصعب جداً تصنيف هذه النصوص وفقاً للمعايير التقليدية الخاصة بالفلسفة أو بالنقد الأدبيّ.

إنها بزعمي نوعٌ من الكتابة التي تُعصى على التصنيف، بل وتتمرّد عليه فهي تتمدّد برفعة واسترخاء على التخوم غير آبهة بحُرّاس الحدود وإيديولوجيا المتعصبين.

المسافة الفاصلة

هل سنشهد معركةً جديدة على تخوم المسافة الفاصلة بين الشك واليقين ضد الخطاب البلاغي في التصارع على ميدان الفلسفة ولكن كيف؟ وهل سينجح الخطاب الحديث من التسلُل متنكراً إلى برج الفلسفة العاجيّ كحصان طروادة الذي دخل بواسطته الشعر إلى أرض الفلسفة المقصيّ منها.؟

هل يتغير اتجاه فتح بوابات الفلسفة ويصبح الداخل خارجاً والخارج داخلاً ؟

هل هي مناورة الحقيقة بين الفهم والوهم ومنهجيات قديمة جديدة في التعامل مع المستندات النصية والواقعات الاجتماعية والسياسية والإشكاليات الأنطولوجية والوجودية.؟

«يُسعفنا بالجواب هُنا. جاك دريدا . والذي يؤكّد وجود ارتباط جذريّ بين الفلسفة والأدب، وهو ارتباطٌ جذريّ لأنهما يتغذيان من نفس الجذور، جذور الطفولة.»

وربما كان أرسطو أول من انتبه إلى هذه الطاقة الفلسفية الكامنة في طبيعة الشعر نفسها حين قال: «إن الشعر أكثر تفلسفاً من التاريخ وأهم لأن الشاعر يتعامل مع الكُلّيّات..»

مشروع الحلم

وفق هذا قدّم الكاتب «حافظ حسين»مشروعه الحلم، ومشاريعه الثقافية الإنسانية وأسانيده الفكرية والمنهجية والتنمويّة غير الرّبحيّة بصفته مؤسساً لهذه المبادرة، وهنا يمكن القول: قد حافظ على الخصلة الإنسانية الأكثر قيمة؛ للتدليل على إجرائية ونجاعة العقل التداولي والمنطق التحويلي والتوليدي ونقد الواقع، لا على إجرائية نقد العقل ومنطق المماهاة والمطابقة والعقل الإيديولوجي.

إذ كرّس الكاتب ذاته لتهذيب الجانب الروحي في الإنسان بوساطة توظيف جملة من الموضوعات التي تُفصح عن تجربة روحية قوامها المجاهدة والمكابدة، وصراع الأهواء.

إذ يقول في نص «قطب الأكوان»:

الكون ذَرّةٌ كبيرةْ
والذّرةُ كونٌ صغيرْ
وحركةُ الأزمان فيه
مستديرةْ. ص-٣١

إذ يعد الكتاب تجربة إبداعية لا تخلو من جمال البساطة؛ ولعل أهمّ مفتاح لسبر أغواره هو مفتاحُ الذات، الذات التي تبحث عن جوهر الحقيقة في كنه الوجود.

حيث يقول:

« صورٌ
أشكالها مجاميعُ فكرٍ
من كتب فلسفية
تخاطب العقل
وتُحاكي الروح». ص- ٥٤

اعتمد «حافظ حسين» على الأسلوب الشذري، والجملة الشذرية، والمقاطع المتشظية.

ومن ثم، فالأسلوب الشذري هو أسلوب الكتابة اللانسقية الذي يعتمد على المقطع أو الشذرة أو النص الطليق؛ ويعتمد على الإيحاء والإشارة ويهجر الفكر والمنطق وبالتالي، بدت الومضات كمقاطع تأملية، وخطرات صوفية، وانطباعات عقلية ونفسية في شكل خواطر روحيه، تعتمد على المسرود الذاتي، والخطاب غير المعروض، وتشغيل ضمير الحضور، واستدعاء الذات المتكلمة.

حيث يقول في محراب العشق : «زارني القمرُ المنيرُ
في مضجعي
في سماه
وأنا في موضعي
وصالُ المعشوق للعاشق رحمة
رَغْم المسافات
يهبَني من طبعه نعمة
الروح تشهد إنّك القريب منها» ص-١٩

وتتمحور نصوص الكاتب تحت لافتة العشق والتمسك بصراع الذاكرة والخيبة مع الواقع والنفاق، ومواجهة العبث وجهاً لوجه بالتحديق في عينيه ومحذراً يقول:

جميلٌ أن تكونَ مضاءً بنوره
مستمدّاً قوّتكَ من عظمة حضوره
اقترب بالمعرفة إليه أكثر
فالجزء والكل منه
وبه يعبر
حذار حذار أيها العارف أن ترجع
بعد أن تسلك طريق العارف. ص- ٣٦

جملة القول:

إذ لكلّ قراءة منطق لنفوذها داخل النص، ولكلّ قارئ استراتيجيته الخاصة وراء قراءته التي تسمح له بالاختيار والترحال والاغتراب، وفقاً لما يصبو إلى تحقيقه في لحظات الكشف والرؤيا.

لأن القراءة ليست مسحاً بصرياً للنص، ولا تفسيراً معجمياً لألفاظه، واستنباطاً لمعانيه المباشرة، فهي فعل خلّاق كالإبداع نفسه.

وعلى هذا الأساس يعد الأدب رسالة فنية تختلف عن الرسائل اليومية، التي تتم وفق اللغة العادية.. وما تعرفه اللغة من ديناميكية في الزمان والمكان، هو ما يجعلنا نؤمن بأن متن (ومضات في سماء الحكمة) تجربة ذاتية لحافظ عبد الحميد حسين، تنقل انفعالاته ومشاعره ومواقفه إلى الآخرين، بالاعتماد على قوة المُضمر والتمثيل والإيحاء، ولذلك تتعدد الألفاظ والصور والأساليب بتعدد المواقف والانفعالات.

هذه الومضات بالرغم من بساطتها إذ تنتصر بالدعوة إلى الحكمة والتآخي والوحدة والتفاعل الحر، فيصبح العنوان متناً مركزياً والمتن الروحي عنواناً في سبيل الوصول إلى حالة من التوافق والانسجام، تجعل من الأنا والآخر صورة واحدة تصنع المستقبل وترسم صورة حية وناصعة للتآلف والتعايش والتفاهم وتقبّل الآخر في هذه الدائرة الوجودية.

غادة اليوسف:
الغرب فقد وهجه الفكري

حوار : رفاه الدروبي

حول دور الغرب الثقافي كان هذا اللقاء السريع مع الكاتبة والشاعرة غادة اليوسف التي أشارت إلى أنّ من يمتلك أسباب القوة والسيطرة على الآخر في الجماعات البشرية من فرض ونشرهيمنته الفكرية وثقافته عليها. ويمكن سبره عبر التاريخ البشري كلِّه.

وعبر هيمنة الحضارات الماضية والحاضرة على أماكن سيطرتها العسكرية والسياسية والاقتصادية. ويتجلى في كافة المجالات تبدو بالقيم والأخلاق والعادات وشكل العمران وحتى الأزياء والفنون والآداب والأسباب سيطرة الأقوى.خاصة حين ينتهج القوي العنف على الشعوب المهيمن عليها ويتم تدجينها لضمان رضوخها خاصة أن شعوباً لا إرثاً حضارياً لها .

منوهة أنّ هيمنة الغرب الاقتصادية الاستعمارية منذ الانطلاقة الصناعية الكبرى فيه والرأسمالية بعد تحولها إلى الإمبريالية باستعمار البلدان الغنية بمقدراتها وثرواتها ومواقعها ترافق بنشر وفرض الفكر والثقافة الغربية وهيمنته على الكوكب ولكن عنف الغرب المنتهج ولايزال رغم كلّ ادعاءاته التحررية والديمقراطية وحقوق الإنسان غيرها لاتطبق إلا بما يخدم سياساته الاستعمارية. كان العنف سبباً لأولوية دفاعية عند الشعوب المستغَلة ما أدّى إلى استيقاظ ونهوض الفكر القومي والسعي لبعث التراث والثقافة لدى كلّ شعب من الشعوب في الفكر السياسي والاجتماعي وفي عالم الفنون و...ولكن حين تعثر المشروع القومي رغم إحياء الفكر والثقافة تغذيه ولدى فشله في تحقيق أهدافه انبعثت الأصوليات بأشكالها كأولوية دفاعية بديلة عن هوية فكرية تتغذى من ماضوية لا تتماشى مع العصر كردة فعل على هيمنة كلّ فكر تنويري حضاري إنساني وكدفاع عن هوية فكرية تحاول بكلّ قوة مقاومة الهيمنة الفكرية الغربية كرد فعل مفتعل وعنفي على الغرب كما نرى اليوم مابشر به صموئيل هنتغتون يوماً من صراع الحضارات.

وتابعت الكاتبة اليوسف إلى مانراه اليوم من التطرف الديني حيث يحاول إلغاء كلّ ماجاء به الفكر الغربي، واعتباره ضلالاً وكفراً ولم يعد خافياً هيمنة الفكر الأصولي المتطرف على الكثيرين وخاصة في الشرق. وخاصة في شرق يعاني من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية. وليس خافياً أنّ الغرب يغذيها لأنّه لايزال الأقوى عسكرياً واقتصادياً ويستثمرها في التناحر بين شعوب يريد استمرار هيمنته عليها ولايزال الصراع قائماً على أنّه صراع محسوم النتيجة لأنّ من يهيمن اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً من يهيمن فكرياً وثقافياً لكن في وقتنا الراهن يعوّل على دور المفكرين التنويريين في كلّ مكان من العالم وحولهم من يمهد الطريق لفكر وثقافة عالمية إنسانية ولن يكون إلا في ظلّ قيام نظام اقتصادي عالمي عادل .

وتر الكلام

غرفة مغلقة...!

سعاد زاهر

تفتح الباب الزجاجي الداكن، ثم تغلقه مجدداً، تدخل إلى الحجرة الواسعة تفتح التلفزيون، مضى بعض الوقت لم تركز في أي شيء، مجرد أفواه تفتح وتغلق...

عادت إلى الحديقة، تمايل الأغصان الهادئ مع بعض النسمات المنعشة يتخللها حر خفيف يبدو كإعلان عن عودة الصيف، تعتقد أن ذهنها فارغ، لكنه يمتلئ بفكرة وحيدة، مهما حاولت إهمالها تعلق بذهنها أكثر، لا شيء ينفع.

مضى أكثر من شهر...

حين جرها كابوس إلى الدخول مصادفة إلى تلك الغرفة المغلقة أبداً، استغربت كيف تجرأت على الحصول على المفتاح والبحث بين أغراض لم تكن يوماً لها، رجفان قلبها، وتوترها كادا أن يفضيا بها إلى الانسحاب، ولكنها خافت ألا تعثر ثانية على المفتاح.

بينما تقلب في ملفات الكمبيوتر شعرت للوهلة الأولى أنها تضيع وقتها، مجرد ملفات عمل كثيفة، كلها رموز لا تفهم بها، حين دخلت إلى أحد الفولدرات اختلف كل شيء....

بدا لها أنها في ثانية انتقلت إلى حياة أخرى....

فهمت كل شيء، هالها أن نبضات قلبها تكاد تخرج من صدرها وبقيت على هذا الحال ربما أكثر من شهر...

نسيت كيف أعادت كل شيء كما كان، كيف أقفلت الموضوع ولم تشعره بمعرفة أي شيء...

كأن شخصية أخرى تلبستها، هول الصدمة كان مرعباً لدرجة أفقدها كل حواسها، كانت في كل تنقلاتها غائبة عن الوعي تنجز كل شيء بشكل آلي، كل ما تتفوه به مجرد كلام أحمق...

كأنها محنطة، للمرة الأولى في حياتها أدركت كيف يكون الموت على قيد الحياة...

حين رأته للمرة الأخيرة...

أدركت أن ذاتها غادرتها الى غير رجعة...!

سامر كحل:
قصيدة النثر تقوم على التكثيف والدهشة

ألوان إبراهيم عبد الهادي

الشعر هذه الدرة والجوهرة التي اتشح بها الشاعر وحملها مكنونات ذاته. فكان الشاعر مثقلاً بأبعاد حياته المعجونة بهمومه وآلامه وأفراحه وأتراحه لقضاياه الكبرى وحوامل وجوده وانطلاق ذاته في ركائز مجتمعية وقيود العادات والتقاليد القاتلة لروحه. وانطلاقه لآفاق جديدة وآمال يحيكها بكلتا يديه. ويلسم لها كفوح العبير فهو المقود والمحرك لهذه الروح الإنسانية يصقل جوهرها ويسمو بها إلى العلياء الشعراء هم الفاتحون لنا أبواب الحياة على مصراعيها والقائدون دفتها بحب لهذا الوجود وببساطة ينثرون عطورهم لتنعش الناس وتأخذ بيدهم إلى كوى الضياء.

الشاعر الكبير سامر كحل من أهم الشعراء السوريين الذي قاد دفة الشعر إلى طلائع الحياة الراقية والناعمة بهذا الوجود الإنساني المفعم بالحب للمكان والناس والأرض والانتماء. كرم سورياً وعربياً عضو اتحاد الكتاب العرب إصداراته الشعرية مهمة ولها بصمتها فقد أجرينا معه هذا الحوار حول الشعر:

. الشاعر سامر كحل ما إصداراتك الشعرية وأين تجد نفسك بها أو بالأحرى أي هذه الدواوين حقق لك ماتطمح إليه؟

لدي سبعة أعمال منها مطبوع ومنها قيد الطباعة .المطبوع بالتسلسل:

١. أطلال الجسد . وزارة الثقافة ١٩٩٨م ٢. صداح أناشيد للأطفال ١٩٩٩م ٣. مايقلق الريح دار الينابيع ٢٠٠٥م ٤. مائدة الوقت الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٥م ٥حين أولد في المرة القادمة دار الينابيع ٢٠٢١م

٦. هزات ارتدادية الهيئة السورية للكتاب قيد الصدور

٧. فاتح العدم قيد الصدور

لا أرى أن الشعر قادر على أن يفصل بين مجموعاته الشعرية، فلدي رابطة روحية تشدني إلى كل ماكتبته من قديمه وحديثه وبخاصة أنني كنت متريثاً جداً في الطباعة والنشر، ولم يكن الكم له أهمية لدي في يوم من الأيام ولكن لابد من الإشارة إلى ما يصدر حديثاً له أهمية خاصة كونه يحمل أسلوبية مختلفة عن المجموعات الأولى من حيث شكل القصيدة النثرية وبنيتها. إذ إن المجموعتين قيد الصدور تحمل هذا الصنف، وهو جديد على تجربتي ومختلف.

. بدأت بقصيدة التفعيلة، فما صداها بما يكتب اليوم من حداثوي ونثري؟

قصيدة التفعيلة لها جذورها الفنية الرصينة والمهمة ولها حداثتها فنياً ولغوياً، فهي قصيدة تتحمل التكثيف مثلما تتحمل أيضاً النفس الملحمي ولا أعتقد في يوم من الأيام ستكون محض فني كلاسيكي لأشكال الشعر كما حال القصيدة العمودية كمفهوم، ولكن أعتقد حتى القصيدة العمودية يمكنها أن تجايل الحداثة وتحتويها وتكتب بنفس جديد وحداثوي كما هي تجارب بعض الشعراء في هذا الشكل الكلاسيكي من الشعر وأذكر على سبيل المثال شاعرين مهمين محمد علي شمس الدين في مجموعته «منازل النرد» وصقر عليشي في مجموعته «الغزال».

أما قصيدة النثر فهي أخطر نوع من أنواع الشعر لأنها تقوم على التجريد وإظهار روح الشعر دون الالتفات إلى الثوب الإيقاعي الخارجي للقصيدة. وهي لا تتحمل المراوغة أو الحشو أو الإطالة. ولعل من أكثر الأخطاء التي وقع بها عدد لا يستهان به ممن يكتبون نصوصاً نثرية يوهمون بأنهم يكتبون قصيدة نثرية وهم أبعد ما يمكن عن الشعر.

. برأيك قصيدة الومضة حققت هذه الغاية؟

قصيدة الومضة قصيدة تستحق الوقوف عندها مطولاً إذ إنها أكثر ماتشبه انزلاق شهب أو هزة روحية وعليها أن تكون بنفس هذه الصفات في تأثيرها بالقارئ وإلا ستكون محط لغة باردة لا تحمل أهم عنصرين يكونانها «الدهشة والمفاجأة» أي قصيدة الصدمة.

. قصيدة النثر لم تأتِ من فراغ من هم الشعراء المؤسسون لهذه المدرسة في الشعر، وما مدى تأثيرهم فيما نجده اليوم؟

هناك شعراء لقصيدة النثر خلقوا ليكونوا شعراء هذا الصنف من أصناف الشعر للقصيدة النثرية وأكبر مثال على ذلك محمد الماغوط الشاعر الذي كان ينفي عن كتاباته في البداية صفة الشعر وكان الشاعر يقول: أنا أكتب النص النثري لأن مفهوم الشعر بالنسبة له القصيدة الموزونة سواء أكانت عمودية أم تفعيلة غير أنه بالفعل كان من أهم رواد قصيدة النثر وصاحب الصوت الواضح والخاص في هذا المجال، وهناك تجارب مهمة وكبيرة مثل أدونيس وأنسي الحاج وسليم بركات ومحمد عمران وآخرين .. وقد ازدهر هذا الشكل من الشعر علي أيدي شعراء مجلة شعر اللبنانية، ومن بعدها شعراء مجلة ألف التي ضمت كثيراً من شعراء قصيدة النثر ومنهم أسامة إسبر وعهد فاضل وغيرهم، أما بخصوص ما يكتب اليوم وينشر سواء في المؤسسات العامة أو الخاصة أو على وسائل التواصل الاجتماعي فيه الكثير من المغالطة في فهم ماهية قصيدة النثر وبنيتها ولغتها شكلاً ومضموناً فكل تلك الوسائل سهلت مفهوم الاستسهال واللامسؤولية والجهل والإساءة لمفهوم الشعر العربي بشكل عام والقصيدة النثرية بشكل خاص ومن حق أي شاعر يحترم ذاته أن يتهم في الدرجة الأولى المؤسسات العامة غير المسؤولة في تسهيل نشر مثل هذه التجارب بكثافة لافتة للانتباه والذي يقع على عاتق قراء هذه المؤسسات ولا يغيب عن البال الإشارة إلى تقاعس النقد والنقاد حول رسم خطوط عريضة لمفهوم تلك القصيدة التي لايستهان بأهميتها وعدم الاكتراث إلى الانحدار الذي وصل إليه الشعر وليس هذا فحسب بل إنهم أي النقاد لهم دور كبير في تقويض بعض التجارب من خلال العلاقات الخاصة على حساب هذا البناء الفني للقصيدة.

. ما مفهوم قصيدة النثر وبنيتها ولغتها شكلاً ومضموناً وكيف يمكن الإساءة إليها برأيك ؟.

قصيدة النثر تقوم بالدرجة الأولى على تكثيف النص لغوياً فهي لاتحتمل الإطالة وتعتمد بشكل رئيسي على عنصري الدهشة والمفاجأة إضافة للانزياح والصورة تلك العناصر التي من الممكن أن تشكل جوهر قصيدة النثر ولعل الأقدر على رسم ماهية القصيدة النثرية بلا شك هو النقد الجاد والبناء المغيب والذي أساءة إلى مفهومها حتى وصلنا إلى هذا الانحطاط الذي لا يخفى على أحد في الشعر.

الشاعر والمتشاعر والليبرالية الحديثة

محمد خالد الخضر

مازالت محاولات تخريب الشعر تزداد إصراراً وذلك بسبب ما يحظى به الموما إليه من تشجيع وتصفيق بأشكال مختلفة، وثمة دعم لهذه الظاهرة صار يقدم منظومته بوقاحة، ودون خجل، وعندما نصحت إحدى المتشاعرات أن تفرق بين السجع وهو الكلام الفارغ الذي يردفه صاحبه بتوحيد الحرف الأخير وبين الشعر الذي يتكون من موسيقا وعافية وروي وصور وعواطف، وهذا ما يفقده السجع ..فقالت لي: عندما قرأت قصيدتي على منبر أشار لي واحد من كبار الشعراء بإصبعه الإبهام يعني كلامه مخالف لكلامك فقلت لها: هذا ينافق أكثر مما يدعم كتاباتك.

والأكثر صعوبة من ذلك هي تفشي ظاهرة ما يسمونه بالشعر الشعبي وهو كلام لا يقدم ولا يؤخر يأتي بمليون شكل ويخلو من البنيات المكونة للشعر ولا يمتلك إلا اهتزاز صاحبه وراء المنبر أو صاحبته التي تضيف إلى الاهتزاز كثيراً من الغنج والدلع على شاشات التلفزة الممتدة في الوطن العربي ولاسيما أن المحاورات لهذه الأنواع من الشعر لا يفرق بين الشعر بكسر الشين أو بفتحها.

وقد تكون أغلب هذه الأخطاء التي يتحمل كثيراً من مسؤوليتها النقاد وجهل بعض الإعلاميين الذين يهتمون بتسريحات شعرهم وذقونهم وانواع المكياج أكثر بعشرات المرات من الاهتمام بقراءة صفحة من كتاب تشير إلى شيء من المعرفة.

وهذه في واقع الحال خدمة ليست قليلة لتوسيع نشاط الليبرالية الحديثة بقصد أو بدون قصد فالنتيجة واحدة.. ولابد من تجسيد حالات المحاسبة في حال ضبطت تزييفات نقدية مطوقة بأي تغطية إعلامية لأن هذا الوطن هو كرامتنا، وقليل من الحياء يجعلنا محافظين على الأقل على جزء من الكرامة.. وأقدم مثالاً.

اذا ذهب ناقد ما إلى بيته وسألته زوجته أو ابنته بأي دافع تعطي صفة شاعرة لفلانه وهي لا تتقن كتابة الإملاء وقد تسأل المشار إليها أيضاً في بيتها السؤال عينه وهذا ينطبق على الإعلامي والإعلامية أيضاً قولوا لي أين الجواب الصحيح؟

وبعضنا يتشدق بالثقافة ولانعرف أبداً بعد ذلك أن يفرق بين من يحافظ على وطنه وبين من يخونه ولا نعرف إلا أن نرفع أيادينا إلى السماء دون معنى.

زاوية حادة..

واسع وهش ...

د.ح

مع أن الشابكة أتاحت مساحة واسعة وكبيرة للنشر الإبداعي ولاسيما في الصفحات الزرقاء أو المواقع التي تتصدى لهذا الأمر..

وهذا ما أتاح لنا أن نطلع على تجارب كثيرة ومتعددة وكسر احتكار النشر الورقي واستطاع الوصول إلى طيف واسع من القراء أو المتابعين وتخلص من سطوة الرقيب..

هذه بعض محاسن هذا الفضاء الواسع، ولكن ثمة ما يهدد هذا النشر لعل أول هذه الأخطار تساوي الجيد والرديء وانتشار الألقاب المجانية ناهيك أنه مجال للسطو والسرقات الأدبية والتشويه والتشابه والتكرار واجترار العبارات .. وضياع الهوية الإبداعية وعدم القدرة على معرفة الحقيقي من المزيف، وغير ذلك كثير من المنغصات التي تطالعنا كل ساعة ..ومع ذلك يبقى فسحة مهمة وواسعة ولكن شرط أن يكون ضمن المواقع التي أسست ملامحها وترسخت هويتها ويتابعها المبدعون الحقيقيون.

عصر النهضة وشعره الضاحك

أحمد بوبس

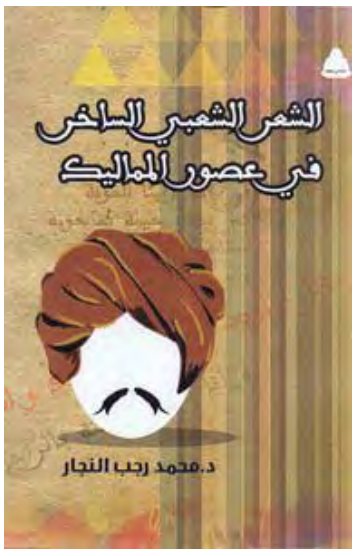

كنت أحسب أن الشعر الضاحك أو الساخر أو الطريف - سمه ما شئت - هو حكر على عصر الانحطاط ، ولكن منذ أيام كنت أقرأ كتاب (رواد النهضة الحديثة) تأليف مارون عبود. فإذ بي أمام عدد من شعراء عصر النهضة قد أدلو بدلوهم في هذا النوع من الشعر الذي أطلق عليه شاعرنا الكبير سليمان العيسى (الشعر الحلمنتيشي).

وقبل أن أخوض فيما نظمه هؤلاء الشعراء من هذا الشعر، لا بد من تعريف القارئ، ما المقصود بعصر النهضة. فبعد نحو ثلاثمئة من السنين في ظل الحكم العثماني، عانى العرب من سبات أدبي طويل، لم يظهر فيه شاعر - إلا ما ندر- وفي مطلع القرن الثامن عشر، بدأت تظهر بعض الأصوات الأدبية، والشعرية منها بشكل خاص، لتشكل بداية نهضة أدبية عربية وخاصة في لبنان ومصر، ثم بعد ذلك في سورية. وكان لابد لأي شاعر من أن يدلو بدلوه في الشعر الضاحك إلى جانب أغراض الشعر الأخرى.

ابن الإفرنجية شاعر عاش قي أواسط القرن الثامن عشر. من بلدة اهدن اللبنانية. انتقل أهله إلى حلب أيام السلطان الغازي سليم خان الثاني أواسط القرن السادس عشر. نظم الكثير من المقاطع الشعرية الساخرة. له كتاب (المجموع المنتظم من فرائد الكلم)، أودعه الكثير من الطرائف والأخبار والفقرات النثرية والمقاطع الشعرية من نظمه ونظم والده أنطوان فرنجية وبعض شعراء عصره، وانتهى من تأليفه عام ١٧٨٠.

القهوة من أسماء الخمرة عند العرب، والقهوة أيضاً هي البن وابن الإفرنجية بتحدث بلسان بلسان قهوة الخمرة تهجو قهوة البن:

سمعت لسان الحال في قهوة الطلا
تقول هلمّوا اسمعوا واسمعوا نصّ إخباري
فباسمي تسمّت قهوة البن في الملا
ولكنها لم تحكِ بالفضل أخباري
فمن كذبها قد سوّد الله وجهها
وعذبها بعد الإهانة بالنار

ومن طرائف ابن الإفرنجية الشعرية هذان البيتان اللذان يُقرأان طرداً فيكونان مدحاً، وإذا قرئا عكساً استحالا هجاء:

عدلوا فما ظُلمت بهم دولٌ سعدوا فما زلت بهم قدمُ
بذلوا فما شحّت لهم شِيَمٌ رشدوا فما زالت لهم نِعمُ

وإذا ما أعدنا قراءتها من الأخير إلى الأول تصبح هجاء، يقول:

قدمٌ بهم زلت فما سعدوا دول بهم ظلمت فما عدلوا
نِعمٌ لهم زالت فما رشدوا شِيَمٌ لهم شُحت فما بذلوا

وقال يصف ليال ليلاء قضاها بين البعوض والبراغيث:

وليل بتّهُ رهن اكتئاب ألاقي فيه أنواع العذاب
إذا شرب البعوض دمي وغنّى فللبرغوث رقص في ثيابي

وفي ذلك قال أيضاً:

ثلاث باءات بلينا بها البقُ والبرغوث والبرغشُ
ثلاثةٌ أوحش ما في الورى ولست أدري أيها أوحشُ

وقال في عجوز يصبغ لحيته كي يبدوا أصغر عمراً:

قل للذي يطمع في صبغته بِرَدِّ ما قد فات من صبوتهْ
هب أنه أنكر ما لم يكن يكفيه أن يكذب في لحيتهْ

وقال أيضاً يصف بشاعة صوت مطرب:

قد دهاني ما دهاني من ثقيلٍ في الأغاني
قلت إن غنى عراقاً ليتني في أصفهانِ

نقولا بن يوسف الترك الإسطمبولي (١٧٦٣-١٨٢٨) هو شاعر أصله من بلاد الترك من أسرة يونانية ومولده ووفاته في دير القمر في لبنان.سافر إلى مصر واستخدم كاتباً في حملة نابليون على مصر، وعاد إلى لبنان فخدم الأمير بشير الشهابي، وكان للأمير كاتباً وشاعراً ونديماً. وله في مدحه قصائد. وعمي في أواخر أعوامه، فكان يملي ما ينظمه على ابنته وردة.

دلّ نقولا الترك بدلوه في الشعر الساخر أو الضاحك. من ذلك أنه كان يملك شروالاً وعمامة، بليا من كثرة الاستعمال لسنوات كثيرة، ووصل الأمر بهما أن يطلبا منه عتقهما فقد هرما، في ذلك يقول:

وشروالي شكا عتقاً وأمسى يراودني العِتاق فما عتقتُ
وكم قد قال لي: بالله قِلني وهبني كنت عبداً وانطلقتُ
أما تدري بأني صرت هَرْماً وزاد عليّ أني قد فُتقتُ
فدعني حيث قلّ النفع مني وعاد من المحال ولو رُتقْتُ
ولا تعباً بتقليبي ...لأني بعمر أبيك نوح قد لحقتُ
ولم يبرح يُجدد كل يوم عليّ النعي حتى قد قلقتُ
فقلتُ له عُتقتَ اليومَ مني لأني في سواك قد اعتقلتُ
فأشعرتِ العمامةُ في مقالي له فاستحسنت ما قد نطقتُ
فراحت وهي تشدو فوق رأسي لي البشرى إذن وأنا عُتقتُ

ومن طرائفه الشعرية قوله:

عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ قططٌ سودٌ ولها ذنبٌ
تصطاد الفار من الأوكارِ وتطيح الحيط فتنقلبُ

محاكياً فيها أبيات الشاعر ابن سودون من عصر الانحطاط التي يقول فيها:

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ بقرا امشي ولها ذنبٌ
ولها في بزبزها لبن يبدوا للناس إذا حلبوا

ونظم مناظرة شعرية أجراها بين الزيت واللحم، كل منهما يُظهر قيمته الغذائية وأهميته على الآخر، يبدأ الزيت فيها بالفخر فيقول:

أنا الزيت الذي كلٌ إليه بمحتاجٍ ووصفي قد تنوّعْ
فنوري شاهدٌ في عِظَم فضلي إذا ما في الظلام الليل لعلعْ
وكم قوّمت من عرج وكم قد أقمت مكسّحاً وشفيت أكنعْ
ومني يكسب الصابون عرفاً زكياً بشبه المسك المضوّعْ
به قد نغسل الأدران طُراً عن الأبدان والملبوس أجمعْ
وكم لي من مزيّات تناهت فضاق بوصفها الشرح الموسّعْ

ويرد اللحم مظهراً فضله ومزاياه فيقول:

فقال اللحم مفتخراً عليه لقد وسّعتَ ذا الشدق المخلّعْ
فشحمي في الليالي عنكَ يُغني ضياهُ بل وفي الأشراق يسطعْ
فريحك كيفما حاولت تُردي ودهنك أينما قد حلّ بقّعْ
وأكلك منكرٌ عتد الأطبا لأنك محرق للكبد تلذعْ
وإما أن تسلْ عني فإني أنا اللحم الذي قدري ترفّعْ
ومطبوخي لذيذٌ مُستطابٌ شهيُ الأكل طاب لكلِّ مبلعْ
كذلك طعمُ أمراقي شفاءٌ بقوّي كل من منه تجرّعْ
وأتواع البقول وكل نبتٍ نما للأكل لي خدمٌ وتُبّعْ
ولي دسمٌ يُذّكي كل نوعٍ مِنَ الطبخ الذي لي فيه إصبعْ
لذاك ترى ملوك الأرضِ طراً لهم في مأكلي ولعُ ومطمعْ
فَعُدْ يا زيت عمّا أنت فيه ومن هذا الجدال الشاذ دعْ دعْ

الأدب يفضح فظائع الاستعمار الفرنسي

مها محفوض محمد

باريس التي تدعي أنها عاصمة النور والحريات لم تكن في يوم من الايام إلا دولة استعمارية، تاريخها في العالم معروف، ولاسيما في أفريقيا، وهاهو الأدب يعود ليحفر في هذا التاريخ ويقدمه للأجيال لئلا تنسى، والأدباء الأفريقيون هم الأقدر على ذلك ومنهم الروائي الغيني تييرنو مونيمبو، الذي شاءت الصدف أن يولد في شهر نيسان من سنة ١٩٤٧، وقد تحدث عن وحشية الاستعمار الفرنسي وسوء توظيف الأفارقة، من خلال روايته «الملك كاهيل»، واسترخاصهم من خلال السفن التي كانت تنقل الرقيق منذ القرن التاسع عشر، حاملة الزنوج إلى المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد.. وركزت غالبية روايات تييرنو على مرحلة ما قبل الاستقلال وبعده، حيث يعود إلى أبطال المقاومة الأفارقة، وأشهرهم آدي با، بطل تحرير سينغالي قاد جماعة من المقاومين الأفارقة خلال الحرب العالمية الثانية في منطقة الفوغ شرق فرنسا بعد أن دُفع للمشاركة في تلك الحرب قسراً نظراً لاستعمار الفرنسيين لبلاده واقتياده مع مجموعة من السينغاليين والغينيين والإيفواريين، للدفاع عن المستعمرات الفرنسية..

وفي المغرب، كانت الدار البيضاء، وبالتحديد ثكنة عين البرجة، تعج بالجنود الأفارقة السود من جنسيات أفريقية مختلفة، يتحركون بأوامر المقيم العام وقيادات الجيش.. وكشف كتاب «الحركة الوطنية في الشمال ودورها في استقلال المغرب والجزائر» لحمو الإدريسي السيدالي عن الجنود الأفارقة العاملين تحت إمرة الاستعمار الفرنسي، وأوضح أن معارك جيش التحرير كشفت عن حجم الانتدابات القادمة من بلدان وراء الصحراء، مشيراً إلى معركة جند لها الفرنسيون جيشاً قوامه ٥٠٠ جندي سينغالي، «تصدينا لهذه الفرقة بنيران بنادقنا ورشاشاتنا، فاضطرت إلى اللجوء إلى الجيش الإسباني الذي كان مرابطا على الحدود.. فشددنا عليهم الحصار، والحراسة، فوجدناهم مسلمين يصلون، ولذلك أخلينا سبيلهم على أساس أن يرجعوا إلى ثكناتهم لا ليحاربوننا، فرجعوا إلى مراكزهم»، لكن أكبر عدد من هؤلاء الجنود كان يستقر في ثكنة بالدار البيضاء تدعى ثكنة عين البرجة..

تقنين وتقريب البغاء من المستعمرين لا يمكن ضمان الحد الأدنى من استقرار الجيوش الاستعمارية، منذ نهاية القرن التاسع عشر، دون توفير جانب من المتعة الجنسية للمستعمر وأزلامه.. لذا فكر الفرنسيون في طريقة لطرد الملل من نفوس أفراد جيشه، وجعلهم يتأقلمون مع المناخ الجديد.. وقد بدأت الفكرة بخلق ملاه ليلية الغاية منها الترويح عن نفوس المستعمر وكل الغرباء الذين وجدوا أنفسهم فجأة أمام خصم لم يسئ إليهم. كما تطور الأمر إلى تشييد دور الدعارة من أجل تلبية الرغبات الجنسية لجنود الاحتلال، بعد أن خصصت الملاهي المصنفة والمراقص العصرية للضباط وكبار المسؤولين ولعلية القوم الفرنسي، بعد أن جلبت السلطات الاستعمارية راقصات من دول أوربية.. وعمدت فرنسا إلى تعزيز حضورها بفتح ملهى ليلي ودور للدعارة، وازدهرت عمليات الوساطة في هذا المجال، الذي أصبح ملاذاً للراغبين في متعة الجسد.. وأمام الإقبال الكبير على مرافق تصدير المتعة، شرع المستعمر في تجنيد عاهرات من مختلف الديانات والأجناس الغاية منها تشجيع الدعارة التي كانت تشكل مورداً مالياً كبيراً ليس فقط بالنسبة لمتهنات البغاء، بل للسلطات المغربية التي كانت تجد متعة في تدبير الشأن الخاص للمواطنين والوافدين، فهم سواسية أمام تجارة الجسد.. كما أنهم حولوها إلى ريع «بغائي» يوفر مبالغ مالية مهمة. لقد أعاد إلى أبطال المقاومة الإفريقية أمجادهم الحقيقية في رواياته بعد أن حرمتهم الآداب الفرنسية هذا الحق.. وقد حصد عدة جوائز أدبية منها جائزة رينودو عام ٢٠٠٨ لروايته «الملك كاهيل» الملحمة الإفريقية التي علقت في ذاكرة قراء ونقاد الأدب الفرانكوفوني عن الملك الفرنسي أوليفيه دوسند يريفال خلال القرن التاسع عشر في فوتاجالون موطن تربية المواشي وزراعة الأرز وأشجار النخيل والموز في غينيا والتي تطل على المحيط الأطلسي حيث كانت تحط بواخر تجارة الرقيق منذ القرن التاسع عشر حاملة الشباب الزنوج إلى المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد.. وكم أثارت ثروات تلك البلاد المعدنية منها كالألماس والحديد والطبيعية كالأخشاب والمطاط والفاكهة الاستوائية أطماع الفرنسيين الذين احتلوا ساحل العاج(جنوب غينيا) والسنغال قبل أن يمتد غزوهم العسكري من غينيا إلى جاراتها الاستوائية الأخرى.. وتكاد غالبية روايات تييرنو تغطي تلك المرحلة ما قبل الاستقلال وبعده حيث يعود إلى أبطال المقاومة الأفارقة وأشهرهم آدي با بطل تحرير سنغالي قاد جماعة من المقاومين الأفارقة خلال الحرب العالمية الثانية في منطقة الفوغ شرق فرنسا بعد أن دفع للمشاركة في تلك الحرب قسراً نظراً لاستعمار الفرنسيين لبلاده وسوقه مع مجموعة من السنغاليين والغينيين وشبان ساحل العاج للدفاع عن المستعمرات الفرنسية عند خط الاستواء وفي القارة الأوروبية لمواجهة زحف قوات المحور(إيطاليا-ألمانيا- اليابان).

ثم ظلت باريس تتجاهل هؤلاء الجنود المجهولين رغم استشهادهم في سبيل تحريرها من النازيين لا بل تنكرت لهم إلى أن جاء أديب غينيا المتوج مونينمبو ليعيد إحياء ذكراهم في رائعته«المقاتل الأسمر» التي صدرت قبل أيام عن دار «سوي» باللغة الفرنسية وفي الرواية إدانة كبيرة لتدخل القوى الغربية في القارة السمراء وتعرية الأهداف الخفية للفضائح التي يفجرها المستعمرون الحاقدون للنيل من سمعة المسلمين ورموزهم سواءً كانوا قادة مقاومة ضد النازيين على غرار آدي با أم نساء متعبدات اتهمن ظلماً بارتكاب الفواحش..

يقول مونينمبو: ويتمترس الاستعمار الغربي خلف موبقات يفتعلها لتنفيذ مخططات تخدم مصالحه باستمرار.. وفي المراجع التي اعتمدها الأديب الغيني لكتابة روايته عن آدي با وجد وثائق تعود لهذا الزعيم السنغالي المقاوم زعيم حمل في أعماقه شجاعة أبناء قرى خط الاستواء الإفريقية ليواجه النازيين كما يفعل مع التماسيح والأفاعي والحيوانات المفترسة في الغابات الاستوائية، واستطاع آدي بالتخلص من مطاردة الألمان له مع جماعته في الألزاس واللورين قبل أن يقع في أيديهم ويحكم عليه بالموت في أربعينيات القرن الماضي، وخلال تلك المرحلة لم تشهد مقاومة الحلفاء في صفوفها أبطالاً من العرق الأسود استطاعوا التصدي لقوات المحور سوى آدي با....

هذا الاستثناء الذي تنكر الغربيون لبطولاته كي لا ينكشف أمرهم ويظهروا على حقيقتهم بينما سعير الحرب العالمية الثانية يكوي مجتمعاتهم الأوروبية في ذلك الحين.. وكانت باريس آنذاك تعيش أضغاث أحلام عراب الاستعمار الفرنسي جول فيري(١٨٣٢-١٨٩٣) الذي شجع احتلال قواته لكل من تونس والكونغو وفيتنام ودفع بالمقاتلين الذين نقلوا من مستعمرات فرنسا إلى الخطوط الأمامية للدفاع عن أمجادها الغابرة.. ويتوقف مونينمبو مطولاً في رواية آدي با عند تقديم المقاتلين ودور الإفريقيين في مقاومة النازيين حينذاك.. وكان يعمل على نشر رواية جديدة حول معاناة وطنه غينيا من الاستعمار وذلك من خلال سيرة فتاة مع أسرتها تنتمي إلى منطقة متوترة..

يقول مونينمبو وفي نيجيريا المجاورة خاصة في المنطقة الشمالية تنتشر اليوم زبانية من المتطرفين المدعومين من الاستخبارات البريطانية والفرنسية حيث تزودهم تلك الأخيرة بالسلاح لإشعال الفتن والحروب الأهلية باسم الدين.. وكان أديب غينيا قد نشر قبل سنوات رواية عنوانها«فولبيس» نسبة للشعب الذي سكن فوتاجالون خلال القرن السابع عشر وستتناول روايته القادمة هذا المجتمع الرعوي بالدرجة الأولى وما تعرض له من اضطهاد واستبداد المستعمر الفرنسي.

نقش سوري

ماري عجمي

وفاء يونس

كانت ولادتها عام ١٨٨٨ وتحديداً في الرابع عشر من أيار كانت ولادة ماري عجمي ومرت الذكرى دون أن يتذكرها أحد، وخمسة وأربعون عاماً على الرحيل منذ ١٩٦٥ وما بين المناسبتين جدير أن نحتفي بماري عجمي وأن نستعيد ذكراها.

واليوم نقف عند ذكرى الولادة متخذين من مجموعتها مختارات من الشعر والنثر منطلقاً، وقد صدرت هذه المختارات عام ١٩٤٤ عن الرابطة الثقافية النسائية بدمشق وقد كتب مقدمة لها خليل مردم بك.

مما قاله مردم بك في تقديمه: هي أول فتاة في دمشق رفعت راية الأدب وجارت الرجل في ميدانه، فأصدرت مجلة العروس وقامت على تحريرها سنوات طويلة وكتبت في غيرها من الصحف واشتركت في الجمعيات الأدبية وكانت من أقوى أركانها، ودرست الأدب العربي في الشام والعراق.

جمعت بين الصناعتين النثر والنظم، فلها المقالات والخطب والقصائد وعالجت الترجمة كما عالجت الإنشاء.

قلت إن الآنسة ليست بحاجة إلى التعريف وكذلك أدبها ولكن لي فيها وفي هذه المختارات من أدبها كلمة موجزة أريد أن أقولها: لا أحب من غواية المرأة إلا غوايتها في الأدب وأكثر ما يعجبني من أدب المرأة سحر الحياء وهذان المعنيان ماثلان في الآنسة وفي هذه المختارات من أدبها.

محطات في حياتها

وفي تقديم مختارات ماري عجمي ثمة نبذة عن حياتها ونشاطها آثرنا أن نستعين بها لأنها كتبت أثناء حياتها ولذا فهي تتمتع بمصداقية كبيرة.

ولدت ماري عجمي في دمشق في ١٤ أيار سنة ١٨٨٨ من أسرة حموية الأصل نزح جدها إلى دمشق منذ مئتي عام وقد تعلمت في المدرستين الروسية والإيرلندية ونالت شهادتها من الثانوية في تموز عام ١٩٠٣.

وبعد أن مارست التعليم عاماً واحداً التحقت بمدرسة التمريض في الكلية الأميركية إلا أنها لم تكمل الدراسة بها لمرض ثم تنقلت بين سورية ومصر، حيث اشتركت في التعليم والصحافة والخطابة في جرائد البلدين ومحافلهما.

وفي عام ١٩١٠ أنشأت ماري عجمي مجلتها الذائعة الصيت «العروس» وقد استمرت في إصدارها حتى عام ١٩١٤ ثم توقفت عن الصدور إلى أن استأنفته بعد انتهاء الحرب العالمية عام ١٩١٨ ولما توقفت هذه المجلة نهائياً عن الصدور عام ١٩٣٥ كانت قد ملأت بشهرتها وفائدتها الأوساط الأدبية في البلاد العربية بفضل نشاط صاحبتها ومثابرتها واستغراق أوقاتها فيها بحيث إنها تكاد أن تتولى كتابتها كلها إنشاء وترجمة، هذا عدا مساهمتها في سائر الصحف والمجلات العربية في الوطن والمهجر.

وقد كان للمترجمة في الأيام التي شكل فيها النشاط الأدبي في أعوام الحرب العالمية الأولى نشاطاً سياسياً وإنسانياً، إذ جاهدت في نصرة المحكومين السياسيين زائرة السجون مواسية المنفيين مستشفعة الطاغية جمال حتى كادت تجازى على معروفها شراً هذا عدا جهدها في النادي النسائي التركي العربي وإنشائها المدارس وإعطائها الدروس الخاصة لتلميذات عديدات.

عرفت نفسها

ومما كتبته في مقدمة المجموعة أديبة الشام وداد سكاكيني قولها: لقد عرفت ماري نفسها فصانتها عن الهوان وضنت بها على التكلف والرياء واتخذت لذاتها وحياتها أسلوباً في الكتابة والحديث شاع في آثارها وكلامها وهو أسلوب التهكم الذي كانت تصيب بلمحاته الخاطفة مالا يصيب غيرها بالنقد والتعبير والحديث المكرور، فإذا استمعت ماري لرأي عالجته ببديهتها وطبعته بالنكتة التي هي طوع خاطرها وشعورها.

ولعل أبرز ما عرفت به أديبتنا الجليلة هو صراحتها التي لا تصطنع فيها مداراة ولا مداورة وقد جافاها من جرائها كثير ممن كانت وفية لهم في الحل والترحال ولئن تجنى عليها من تجنى فإنها لم تعدم من أهل الأدب والوفاء من يقدرها قدرها ويذكر فضلها.

ولابد من الإشارة إلى أن عجمي كانت المرأة الوحيدة في جمعية الرابطة الأدبية التي أسست في دمشق في العشرينيات من القرن الماضي وكانت في لجنة النقد الأدبي فيها بعد ذلك أسست أول رابطة ثقافية نسائية أغلقت أكثر من مرة أيام الاحتلال العثماني والفرنسي وكان من أعضائها خليل مردم بك، محمد الشريقي، أحمد شاكر الكرمي، شفيق جبري، سليم الجندي.

أمين نخلة: اعطني إياها

ومما يروى أنها حين سمعت نبأ وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي كتبت فيه قصيدة أنشدتها أمام الشاعر اللبناني أمين نخلة كان مطلعها: «هزوا الغصون لعله نائم» فقال لها: اعطني إياها وخذي من شعري ماشئت وعند رثائه لها في حفل تأبينها قال: ما لهم لا يهزون الغصون لعلها نائمة مالهم لا يرون في يومها ما رأته في يوم شوقي.

من دوحة أدبها

المجموعة التي بين أيدينا غنية بالنثر والشعر وكلاهما يغري بالاختيار لكننا نقف عند رثائها لأمير الشعراء ونقتطف قولها:هزوا الغصون لعله نائم

سكران في عش الهوى حالم

فالخلد فوق رياضه حائم

الروض خلو والفضاء قفر

لا شدو شاد هاجه العطر

والمجموعة قسمان كما أسلفنا قسم للنثر وقسم للشعر وهي حرية بأن تعاد طباعتها لما فيها من فائدة ولعلنا نختم بشهادة فارس الخوري بهذه الأديبة حين قال:

يا أهيل العبقرية.. سجلوا هذي الشهادة

إن ماري العجمية.. هي مي وزيادة

بقي أن نشير إلى أنها توفيت عام ١٩٦٥ ولم يكن في جنازتها إلا نفر قليل من الكتاب والأدباء على رأسهم المرحوم فؤاد الشايب.

ذاكرة

كيف تأسست المكتبات في دمشق..؟!

ينعم القارئ الآن بالكتاب قديمه وحديثه ويصل إليه أينما كان وفي دمشق قبل غيرها من المحافظات السورية كانت أولى لبنات دور الكتب والمكتبات العامة.

انتبه إلى هذا الأمر أدباؤنا ومفكرونا منذ مطلع القرن العشرين وما قبل، فالكتب النفيسة كانت في خزائن أصحابها وقلة ممن لديهم القدرة من طلاب العلم على نسخ واقتناء الكتب أو حتى الوصول فكان أن تلفت نفر كريم من أعلام نهضتنا إلى هذا الأمر وبدأ العمل على إنشاء مكتبات عامة.

في العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية وهو صادر بتاريخ ١ كانون الثاني سنة ١٩٢١م يتوقف سعيد الكرمي عند تاريخ نشأة مكتبات دمشق ويكتب تحت عنوان: دور الكتب وفائدتها، دار الكتب العربية في دمشق يقول الكرمي:

دار الكتب العربية في دمشق

من المعلوم أن أعمال البشر مرتبطة باعتقاداتهم ارتباطاً محكماً فلا يفعلون إلا ما يعتقدون فائدته، والاعتقادات التي ينجم عنها الخير لا تحصل إلا بالعلم فهو مصباح سبيل البر والسلاح على الأعداء وبه يبلغ الرقيق منازل الأحرار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة.

ثم أن لتلقيه واسطتين لا ثالثة لهما أحداهما تلقيه بالتلقين من الأفواه وهذا لا يفيد إلا القواعد اللاتي متى رسخت في الأذهان توسع فيها الإنسان بمقدار مثابرته على تذكارها والعمل بموجبها وفي الحديث: من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم.

والثانية وهي أوسع دائرة وأكثر نفعاً وأغزر مادة وهي المطالعة في الكتب التي قيل فيها:

لنا جلساء لا نمل حديثهم
الىآء مأمونون غيباً ومشهداً

فبقدر توسع الأمة وغناها في التأليف وكثرة الكتب تتقدم في الحضارة والتفوق وفي حسن الأخلاق فيكون ذلك سبباً في قوة شوكتها ونمائها.

هذا وأن لنا في الغرب لعبرة لأن أهله لعلمهم بأن رقي الأمم بمعارفها والمعارف لا تتم إلا بالكتب إذ هي لقاح الأفكار بل مصباحها أخذوا يبذلون النفس والنفيس في تشييد دورها وإفعامها بالكتب على اختلاف أنواعها ولغاتها وأجهدوا أنفسهم في تعلم كل لغة من لغات العالم ليقطفوا ثمرات الكتب المؤلفة في تلك اللغات فلا ترى مملكة بل إمارة من بلادهم إلا وفيها عدة دور للكتب مكتظة بأنواعها ولهم ولع زائد في اللغة العربية التي ما زالوا ينقبون عنها في بلادنا، يشترونها بأغلى الأثمان.. ومن العجب أن كثيراً من الكتب العربية ما وصل إلينا إلا منهم والبعض منها فقد أصله العربي ولم تبق إلا ترجمته.

والشاهد على ما ذكرناه من فائدة دور الكتب ما أحرزته العرب من الحضارة والعمران في صدر الدولة العباسية حتى غار منها ملوك الديلم وما وراء النهر وأتراك أذربيجان وعجم خراسان واقتدوا بها في لغتها وآدابها حتى تناسوا لغتهم والناس في سلوكهم على دين ملوكهم، فقد كان عضد الدولة بن بويه ديلمياً وله الشعر العربي الفائق.

ومن لا يعجب إذا سمع أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان يستحب معه إذا سافر وقرأ أربعين بعيراً من كتب الأدب خاصة ولولا أن الكتب خير جليس وأمتع أنيس لما صرف همه إلى ذلك فقد كان لديه من مهام الدولة مالا يدع له فراغاً لغيره ولهذا كانت بغداد في ذلك العهد أم المدن حضارة وعلماً وكان فيها من المدارس ودور الكتب مالا يحصيه الحساب وأخذ الخلفاء إذ ذاك ولا سيما المأمون في جمع الكتب واستنساخها وترجمتها وإعدادها للراغبين ليتسنى له تعميم العلم الذي به تقل الشرور وتكثر الفوائد وليتمم رغائب والده الرشيد الذي ثبت عنه أنه جعل التعليم اجبارياً حتى قيل إنه لما أراد مصالحة أحد ملوك الروم جعل من شروط الصلح أخذ كتاب بطليموس في الرياضيات وكذا كان فإنه أخذه وترجمه إلى العربية وهو المعروف بالمجسطي.

وأصيبت الاندلس بأكثر مما أصيبت به دمشق وبقيت مصر محافظة على آثار الحضارة العربية بسبب وجود الجامع الأزهر -عمره الله إلى الأبد- لكنها لم تخل دور كتبها الوفيرة من عبث أيدي الطامعين فقد كانت مقر الفاطميين والأكراد والأتراك والجراكسة الذين كان يتلو أحدهم الآخر ويماثله أو يزيد عليه في اقتناء الأجر بتشييد المدارس وشحنها بالكتب المتنوعة فهزت الحمية الخديوي المرحوم اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي فأمر بإنشاء دار الكتب فأنشئت باسم المكتبة الخديوية في قصر درب الجماميز وبجمع الكتب التي في المدارس والمساجد غير كتب الأزهر فإنها مصونة بداعي الاشتغال بها وذلك في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٦ فنقل إليها ما كان على ماذكرنا واستنسخ مالم يكن فيها من الكتب النافعة وأخذ في شراء النفائس الغريبة ولم تزل إلى الآن في نمو وارتقاء حتى صارت تضاهي دور الكتب الغربية انتظاماً ووفرة كتب.

هذا وقد كان في دمشق سلف صالح ممن يغار على العلم وإرشاد الأمة، نخص منهم بالذكر الأستاذ الشهير الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله تعالى الذي كان إذ ذاك مفتش معارف ولاية سورية فشكى ضياع كتب الوقف إلى رئيس الجمعية الخيرية الشيخ علاء الدين حفيد العلامة ابن عابدين فأخذ في جمع الكتب الوقفية في مدة ولاية مدحت باشا لسورية في أثناء ذلك فصل عنها وأقيم مكانه حمدي باشا وحول عنوان الجمعية الخيرية إلى مجلس معارف وناط رياسته بالعلامة المرحوم محمود أفندي حمزة مفتي دمشق فقام المشار إليه بالاشتراك مع الشيخ علاء الدين المذكور آنفاً والشيخ سليم العطار والشيخ محمد المنيني وقدموا طلباً بذلك إلى الوالي حمدي باشا المذكور في ١٥ شباط سنة ١٢٩٥ يتضمن أن الكتب الموقوفة هي لاستفادة العموم وقد حصرت بأيدي المتولين وحرم الناس من مطالعتها فالواجب أن تجمع الكتب والرسائل الموقوفة الكائنة تحت أيدي المتولين ووضعها في خزانة مخصوصة عمرت وأنشئت في تربة الملك الظاهر (بيبرس) في المحل المخصوص المعمر لأجل ذلك لتصير المنفعة عمومية ولا يحرم أحد من الاستفادة والمطالعة ويتأسس بذلك دار كتب عمومية فصدر أمر الوالي بذلك وأن تكون تحت نظارة الأفاضل الذين قدموا له الطلب باسم (جمعية المكتبة العمومية) وجمعت هذه الكتب من عشرة محلات: المكتبة العمرية وهي دار كتب عظيمة قديمة أكثر كتبها مصحح بأيدي العلماء المشهورين وبعضها بخط مؤلفيها وهي وقف أناس متعددين من أهل الفضل وكان مقرها مدرسة شيخ الاسلام ابن أبي عمر الحنبلي في صالحية دمشق المتوفى سنة ٦٨٢ ومكتبة عبد الله باشا وهي مجموعة من كتب وقفها والده محمد باشا قبله سنة ١١٩٠ وكان مقرها في مدرسته إلا أنها اشتهرت نسبتها لابنه المذكور.

ومكتبة سليمان باشا وهي كتب وقفها المشار إليه سنة ١١٩٧ وكان مقرها في مدرسة باب البريد ومكتبة الملا عثمان الكردي وهي كتب وقفها المذكور وكان مقرها في المدرسة السليمانية أيضاً ومكتبة الخياطين وهي كتب وقفها الوزير أسعد باشا بعد سنة ١١٦٥ وكانت في مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا في محلة الخياطين قرب المدرسة النورية المنسوبة لنور الدين الشهيد والمكتبة المرادية وهي كتب موضوعة في مدرسة الشيخ مراد النقشبندي ومكتبة السميساطية وهي كتب حديثة العهد وقفها بعض أهل الخير وكانت موضوعة في المدرسة السيساطية لضيق جامع بني أمية من جهة الشمال.. ومكتبة الياغوشية وهي كتب موضوعة في مدرسة سياوش باشا في محلة الشاغور ومكتبة الأوقاف وهي من دور كتب متفرقة تشتت أمرها فوضعت في ديوان الأوقاف حفظاً لها ومكتبة بيت الخطابة وهي كتب كانت موضوعة في حجرة الخطابة من الجامع الأموي ومن كتب أخرى وقفت حديثاً.

وعين لها محافظون وخدمة، لها نظام مخصوص يقرؤه من زارها وبقيت هكذا على حالها لا يزورها إلا القليل لعدم الرغبة في العلوم والمعارف ولاسيما في أثناء الحرب العامة المندفعة.

شاعر وقصيدة

عُدْ بي إلى حمص

علي حبيب

نسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦ م) شاعر وقاص سوري ولد في حمص، درس في دار المعلمين الروسية في الناصرة.

وهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٠٥م، حيث عمل محرراً في بعض الصحف العربية. أسس مطبعة وأصدر مجلة «الفنون» عام ١٩١٢م. كان أحد مؤسسي الرابطة القلمية في نيويورك عام ١٩٢٠ م، وقد ضمت هذه الرابطة كثيراً من أدباء المهجر في أميركا الشمالية.. نشر عدة مقالات، وترجم عدة كتب عن الروسية.. يتميز شعره بالرقة والحنين للوطن، وقد جَمعهُ في ديوان «الأرواح الحائرة»، و توفي قبل أربعة أيام من صدوره.. له قصّتان: «الصمصامة» و«ديك الجن الحمصي».

يقول نسيب بن أسعد عريضة في قصيدته «أم الحجارة السود» واصفاً مدينته حمص: حمص العديّة، كلنا يهواك يا كعبة الأبطال، إنّ ثراك غمدٌ لسيف الله، في مثواك وهي القصيدة الشهيرة التي يقول فيها: يا دهر قد طال البعاد عن الوطنْ هل عودة تُرجى وقد فات الظعنْ خذني إلى حمصِ.

مختارات

عد بي إلى حمص

صُوَرٌ تَلوحُ لخاطر المَعمودِ
ما بينَ أرياض المُنَى والبيدِ
خَفّاقةٌ فيها بُنودُ العيدِ
بسّامةٌ فيها ثُغورُ الغِيدِ
تَجلو رُؤى ماضي الهَوى المفقودِ
وَقفَ الفؤادُ أسيرَ بارقِ نارِها
يَهفُو إلى ما لاحَ من أسرارِها
لِمَن الديارُ تَذوبُ من تَذكارِها
من بَعدِ طولِ نوىً وفَرطِ جُحودِ
يا مُوثقاً من شَوقِه بقيودِ
يا قلبُ ما هذا الخُفوقُ وما ترى
في ما تَوهّمَهُ الخَيالُ وصَوّرا
تَبكي كأنّك بعضُ أفئدةِ الورى
وظنَنت أنك صرتَ صُلبَ العُودِ
أشَجَتك رُؤيا يا أخا الجُلمُودِ
رُفِعت لطَرفِك من مكانٍ قاصِ
تختالُ بين حَدائقٍ وعِراصِ
أعَرَفتَ يا قلبي عَروسَ العاصي
مَحبي أمانينا ومَحيا الجُودِ
وَنعيمَ راضٍ بالوُجودِ سعيدِ
أعَرَفتَها تلكَ الرُبوعَ العالية
ما بين لبنانٍ وبينَ البادية
الذكرَياتُ وقد بَرَزنَ عَلانِية
نادَينَ عنكَ بحَسرةِ المَطرودِ
يا حمصُ يا بَلدي وأرضَ جدودي
جَثَمَت بكَلكَلِها على دَربِ الأمم
جَبّارةً من طَبعِها رَعيُ الذمم
بَلَدُ الهُدى أحجارُها سُودٌ نَعَم
لِلّه دَرُ سَوادِكِ المَعبودِ
يا حمصُ يا أمّ الحجارِ السُودِ
أنسيمُ وَعرِك ما سَمعتُ مهَينما
أم رُوحُ ديكِ الجنّ من خَلفِ الحمى
أم شيخُنا الجُنديُّ حَنّ ورَنّما
مُتَغَزّلاً بمَعاطفٍ وقُدودِ
بَيضاءَ في ظلِّ الحجارِ السودِ
ماذا يُكابدُ في النَوى ويُقاسي
صبٌ يَحنُّ إلى حِمى المِيماسِ
والى الدُوَيرِ إلى رُبوعِ الكاسِ
وكناسِها وغَزالِها الأملودِ
وإلى مَغاني نَعمةٍ وسُعودِ
حمصُ العَديّةُ كُلُّنا يَهواكِ
يا كَعبةَ الأبطالِ إنّ ثَراكِ
غمدٌ لسيفِ الله في مَثواكِ
ولكَم لنا من خَشعةٍ وسُجودِ
في هَيكلِ النَجوى ومن تَمجيدِ
يا جارةَ العاصي لدَيكِ السُؤدُدُ
لبنانُ دونَكِ ساجدٌ مُتعبّدُ
هو عاشقٌ من دَمعِه لكِ مَوردُ
وارَحمَتا لمُتَيّمٍ مَصفودِ
يَسقي الهوى من قلبِه الجُلمودِ
عاصيكِ كَوثَرُنا لنا في وِردِه
طَعمُ الخُلودِ ونَكهةٌ من شَهدِه
هيهاتِ يوماً تَرتوي في بَعدِه
وَنَبُلُ خُرقةَ أضلُعٍ وكبودِ
إلا بسَلسَلِ مائِهِ المَفقودِ
حادي العِطاشِ إلى مَواردِ ماءِ
نفسي لقد ظَمِئَت فأينَ رَوائي
عَلّلتُها بعدَ النَوى بلِقاءِ
والدَهرُ يأبى أن أفي بعُهودي
أوَ لم يَبِن أن تَستقِرَّ جُهودي
يا دهرُ قد طالَ البُعادُ عن الوطن
هل عَودةٌ تُرجى وقد فات الظَعَن
عُد بي إلى حمصٍ ولو حَشوَ الكَفَن
واهتف أتيتُ بعاثِرٍ مَردودِ
واجعَل ضريحي من حِجارِ سُودِ
يا جارَةَ العاصي إليكِ قد انتهى
أمَلي وانتِ المُبتَغى والمُشتَهى
قلبي يَرى فيكِ المَحاسِنَ كلّها
وعلى هَواكِ يَدينُ بالتَوحيدِ
يا حمصُ يا أمّ الحجارِ السُودِ

لاحت قصورُ الخَيالِ

لاحت قصورُ الخَيالِ
تَعلو متونَ الغَمام
يا أختَ روحي تعالي
أطلت فيها المُقام
يا اختَ روحي اسمعيني
من أوج تلك السماء
قد كاد يقضي يقيني
هلا أجبتِ النداء
أراكِ لا تعرفيني
أزالَ عني البَهاء
أجل تغير كُنهي
مُذ جِئتُ أرضَ الشَقاء
بُدّلتُ فيها جَلالي
بحُلّةٍ من عِظام
يا أختَ روحي تَعالي
قد أضجَرَتني الأنام
أرنو بليلٍ كئيبٍ
وطرفُ جسمي كليل
أصغي تُرى من مُجيبِ
أو من خَيالٍ جَميل
يلوحُ رجعُ سَناهُ
في طَيّ غَيمٍ ثَقيل
وكيف والجوُّ قفرٌ
يحارُ فيه الدليل
يا ويحَ هذي الليالي
أضحت لطَرفي لِثام
يا أختَ روحي تعالي
فالناس صَرعى نِيام
الناسُ من هم جُسومٌ
ضاعت بهنّ النفوس
إن يرقُدوا فنعيمٌ
رُقادهم في البُؤوس
واحسرتا أنا منهم
ما دام جسمي اللّبوس
ناموا ونَفسيَ يَقظى
تَهذي بذكرِ الشُموس
تَرجو انتهاءَ اعتقالي
لكي تَقُضّ الخِيام
يا أختَ روحي تعالي
تُلقي اليكِ الخِطام
كانت لها الشُهبُ عَرشا
وكنتما في اقتراب
فأهبطت فهي تَخشى
وتنزوي في الحجاب
تظَلُّ غَرثى وعَطشى
لقُوتِها والشّراب
تَقتاتُ بالصّوم حيناً
وترتوي بالسّراب
عافت ثُدِيَّ المُحالِ
يَنزُ منها الأوام
يا أختَ روحي تعالي
قد حان عهدُ الفِطام
يا أختَ روحي الحَزينة
إلى متى ذا الصُدود
أو أنتِ مثلي سجينة
قد أثقَلَتك القُيود
مرضتِ في الأرضِ يأساً
ولا صديقٌ يعود
يا أختَ روحيَ صبراً
فالمُلتقى في الخُلود
لاحت قصورُ الخَيالِ
كوَمضةٍ في الظّلام
أكلُهنّ خَوالي
ما مَن يرُدُّ السّلام